بول فاليري (ربيع) : المفكر السياسي

بقلم عبد اللطيف شراره

الشائع المشهور — في بلادنا العربية على الاخص — ان بول فاليري شاعر، وانه شاعر من طراز رمزي خاص! وإذا صح أو استقام لعارفيه قدره الفكري، وقيمته الفلسفية، فان هذه القيمة لا تتعدى، في نظرهم، حيز النقد الادبي والنظريات الجمالية الخالصة.

ذلك بان الذين عُنُوا بفاليري من رسل النهضة الادبية الحديثة، لم يشارفوا آفاقه، في ديار العربية، إلا من زاوية النقد والشعر، واهملوا، تبعاً لذلك، سائر مناحي النشاط التي ظهر بها فاليري، في الربع الثاني من هذا القرن.

والحقيقة هي ان بول فاليري مفكر أكثر مما هو شاعر. وليست شاعريته نفسها إلا جانباً من جوانب عبقريته الفكرية، حتى ان بعض النقاد قارنه مع غيره من فلاسفة العصور الغابرة والحديثة، ثم لم يجد له قريناً بينهم غير ديكارت، استاذ المفكرين المحدثين في اوربا.

ولا مشاحة ان التيار الفكري الذي احدثه فاليري في اوساط المثقفين المعاصرين، يحمل من العمق والطرافة والشمول ما يجعله قوياً دافقا، بحيث يسري زخمه الى اجيال واجيال ... من بعد هذا الجيل الذي عرفه.

على ان الغرابة التي يقع عليها الباحث في أدب فاليري وسيرته الفكرية، إنما تظهر اكثر ما تظهر، في اشتغاله النظري بالسياسة، او اهتمامه، على الاصح، بدرس الواقع السياسي في عالمه، في عصره، وتحليل ظواهر ذلك الواقع، وابراز ما فيه من ضلال وخطأ واعوجاج، فاذا انت اطلعت على «نظراته في العالم الراهن» وعلى «صور فرنسا» تجد ان مكانة ذلك الشاعر في التفكير السياسي، لا تقل عن مكانة اي سائس اوربي، كان لمبادئه وتوجيهاته أثرها القوي الفعال في حيوات معاصريه. فأين السر في هذه الغرابة؟

— ١ —

هناك شيء اكيد، هو ان خوض ميدان الفكر، او الاشتراك في «لعبة الفكر» يؤدي حتماً ودوماً، الى الارتطام بما هو اجتماعي، وما هو شخصي، ولا يملك «اللاعب» ان يتحامى هذه الورطة، مهما جهد في تجنبها، واختط من سُبُلٍ للابتعاد عنها.

تأمل سِيَرَ الأفراد في قريةٍ ما، ولاحظ اساليب سكانها في المعيشة، وطرائقهم في اجتماعاتهم وسهراتهم وحفلاتهم وزياراتهم، وانظر موقف كل منهم حيال الأحداث المهمة في القرية من عرس الى مأتم الى قدوم غريب الى ولادة طفل، تجد ان «الأذكياء» في القرية يفكرون في هذه الأحداث تفكيراً خاصاً، وكثيراً ما ينتقدون ردود الفعل لدى مواطنيهم، ومنهم من يحاول تبديل الأوضاع، وتغيير العادات وتحسين الجو الذي يهيمن على ابناء قريته، فينزلق في «سياسة» القرية، ثم لا يخرج بعدُ من الورطة التي ارتطم بها.. وما ذاك إلا لأنه «يفكر»!

تلك هي قصة ڤاليري الشاعر! وتلك هي قصة اشتغاله النظري بالسياسة الأوربية، فقد كان ڤاليري يعمل، في نجوةٍ من الدنيا، ومعزل عن المجتمع، على فرز الفكر المحض، المطلق، وتخليصه من جميع الشوائب التي تعلق به عادة، من الانفعالات، الى المصالح، الى العواطف..

كان يعلم، خلال اهتمامه هذا، ان المحاولة التي شرع فيها لا تفضي الى «ممكن اجتماعي»، هذا إن لم يكن نجاحها «مستحيلاً» حتى على الصعيد الفرديّ! ولكنه بدأ.. فليمض في تجربته، ولتكن نفسُهُ مختبراً يمارس فيه اعماله، إذ لا بد له من عمل يعمله، وهو القائل: «ان اشرف نشوة واشدها عداوة

بول فاليري — بريشة جورج دسبانيا

للاهتزاز الأعظم ، هي تلك التي تأخذ اصولها في الأعمال » .

وهنا .. غاص ڤاليري ، وغاص في افكاره ، يقلّبها ، وينقيها ، وينقحها ، ويتأمل فيها ، وفي الكلمات التي تعبر عنها ، وفي الأجواء التي تخلقها لفظة الى جانب لفظة ، وفي المعاني التي تتضح هنا وتختفي هناك ، ولكن .. عبثاً ! !

لم يستطع ، حتى في عالم الألفاظ والكلمات ، ان يبلغ منيته الكبرى في « فرز الفكر المحض » ، فهذه الكلمات التي يستعملها ليست له ، ولا هو وضعها ، ولا هو الذي اوجدها .. انها من عمل اجيال واجيال ، تقدمته في العمر ، وسبقته في التاريخ ، وكانت ملتقى الأفكار القديمة والمعاصرة على السواء ، فلا بدّ للناس ان يفهموا منها ما لا يفهمه هو ، كما انه هو يفهم منها ما لا يفهمه غيره .

امام هذه العقبة الكأداء ، لم يجد ڤاليري مفراً من إلقاء سلاحه ، او تغيير وجهة سيره الفكري ، فرأى بثاقب نظره ان الهزيمة تنتظره اذا استمر على عناده في تحرّي الفكر المطلق عن طريق الكلمات ، ووقف يستجم قائلاً « ليست هناك نهاية! »

ها هو يقف على عتبة الهداية ، ويوشك ان يهتدي ، ولكنه انفتل عن غايته ، وعوضاً عن ان يفكر في « المطلق » الذي ينشده ، أدار سمعه للموسيقى ، وطفق يحسد عباقرتها الذين يعيشون في عالم الأنغام ، لا في عالم الكلمات ، ويبنون هناك أبنيتهم الشامخة بكل حرية ، ولا يجبرون على مساومة احد خارج عن نفوسهم ، وتبديل أحاسيسهم او معانيهم من اجله ، ثم يظلون ، الى ذلك ، قادرين على الاتصال بالناس ، وبثهم ما في قلوبهم !

اخذ هذا « الامتياز » الذي يتمتع به اهل الموسيقى يعذب نفسه ، وعن هذا العذاب الغريب ، الفريد في نوعه ، تنبثق جميع الآراء الفنية والفلسفية والسياسية التي تفرّد بها ڤاليري .

— ٢ —

ذلك يعني ان ڤاليري لم يكن « فيلسوفاً » ، وإنما سيق الى التفكير والتأمل سوقاً ، إزاء مشاكل فنية عرضت له ولم يملك حلّها ، لا لأنها بطبيعتها لا تحل ، بل لأن حلها غيرُ منوطٍ به وحده . إنها من شأن المجتمع ، من شأن الجماهير ، من شأن التاريخ والساسة والحكام ، وهكذا ... اصبح ، رغماً عنه ، مفكراً سياسياً .

لم يكن يثق بالفلاسفة ، ولا بمذاهبهم ، لأنه يحمل عنهم فكرة صحيحة ، في منتهى الضبط والصحة ، هي ان كل جهاز فلسفي معرّض للشطط ، محكوم عليه بالغلوّ والمبالغة ، ابداً ودائماً .

هذا صحيح عند فرويد الذي اشتطّ في تعميم نظرته الى الغريزة الجنسية ، وبالغ في تأثيرها على كل سلوكٍ إنساني ، حتى جعل من الانسان « بهيمة » لا يملك من امر غريزته شيئاً ، ولا فكاك له منها بحال من الاحوال ، ولا بشكل من الاشكال .

وهذا صحيح عند آدلر الذي اشتطّ في حسبانه حبّ السيطرة مدار كل حياة ، ومبعث كل تصرّف ، واداة كل تقدّم وعمل .

وهذا صحيح عند ماركس الذي غالى في نظرته الاقتصادية مغالاة أعدم بها كل تجربة انسانية اخرى ، ومحا من النفس كل تطلّع نحو المطلق ...

الأجهزة الفلسفية إذن ، غير اهلٍ للثقة ، لانها تخسر ، إذ تعمّم وتشمل وتبالغ ، قسماً كبيراً من الحقيقة التي تنطوي عليها .

ولكن ڤاليري لا يقف عند هذا الحد في مقاومة « السَّنْتَمة » [1] الفلسفية التي يلجأ اليها الفلاسفة ، ويفرضون بها رأيهم على الحياة تعنّتاً واعتباطاً ، بل يذهب به التفكير الى حجب ثقته ايضاً ، عن المؤرخين ، ويرفض تخويلهم اي حقٍ في التعليم والارشاد والتنبّؤ ، لأن الحوادث ، حوادث هذا العصر خاصة ، أثبتت عجزهم وقصور حساباتهم ومقابلاتهم ومقارناتهم ، ويقول : « ما من شيء يتكرّر ! على الرجال ان يستعدّوا لمجابهة ما لم يكن قط ، ولا حدث قط ! » .

ماذا بقي لدى ڤاليري إذن ؟

— الدين ؟؟ هذا لم يبحث فيه ، ولا تعرّض لذكره ، ولا خاض في حديثه . الأخلاق ؟؟ هذه ايضاً لم يكن له معها اي شأن ، ولا اقترب منها في قليل أو كثير ! ماذا إذن ؟

كانت متعة ڤاليري الكبرى في مجموعة من الكلمات التي يرددّها الناس ولا يفهمونها ، ويتحمسون لها ولا يدركون شيئاً واضحاً من مدلولها : طبيعة ، حب ، حقيقة ، عقل ، جمال ، شعر ، فكر ، وما اشبه ذلك ورادفه واشتق منه وتفرّع عنه . ولكن ، هل للشعر سياسة ؟

هذا سؤال طرحه كارل شابيرو في مجلة « شعر » التي تصدر

(١) هذا تعريب ، على اسلوب العلامة الشيخ عبد الله العلايلي ، لكلمة Systématisation

في نيويورك[1] وأجاب عنه بما يلي : « يبدو لنا ان النقد المجرّد المُستمّ ليس مما يخص الادب ، وإنما هو من اختصاص العلم والفلسفة . نحن نرى ان النقد الادبي يجب ان يكون ذاتياً – لا شخصياً – ، مليئاً بالحرارة، إنسانيّ التواضع والاحتشام ، متفرّداً في اسلوبيته ، ونميل الى الحكم على فصلٍ نقديّ بما فيه من بيان وطلاوة ، لا بما فيه من فضيلةٍ واستقامة » .

أظن أن هذا الجواب هو الصحيح، إذ لا يمكن ان يكون للشعر سياسة ، ما دام تعبيراً عن خلجاتٍ وأحاسيس وعواطف لا يجري عليها حتى مبدأ الحريّة ،بمعنى ان الشاعر نفسه لا يكون حرّاً في ان يحس على هذا النحو او ذاك ، أو يمر بهذه التجربة العاطفيـة أو تلك ، فهو ينطلق إذ ينطلق مدفوعاً بدوافع داخليّة عميقة لا يد له فيها ، ولا قدرة له على تبيّنها في اكثر الأحيان !

غير ان ڤاليري ردّ الشعر نفسه إلى قيودٍ فكرية ولغوية وبيانية ، ووضع له نظاماً رياضياً دقيقاً يذكرنا بأعقد المعادلات الجبرية ، والعمليات الحسابية ، أي أنه انتهى ، بتعبيرٍ آخر ، إلى وضع « سياسة شعريّة » كما فعل قبله سبينوزا ووضع « هندسه اخلاقيّة » !

أقول « سياسة شعرية » استناداً إلى محاضرة القاها فاليري في جامعة الأنتال ، عنوانها « سياسة الروح » برهن فيها أن الروح تجتاز اليوم ازمة عظيمة ، وانّ القيم الكبرى في أزمة ، فلا فائدة بعدُ ولا جدوى من الحضارة ، حتى ولا أمل في إنقاذها ...

– ٣ –

تلك هي نتيجة السياسة الشعرية التي انتهى اليها ڤاليري وآمن بهـا : تشاؤم كالح ، وظلمةٌ سوداء ، واضطرابٌ في تناول الحياة ، وتلذُّذٌ فريد بالتهاويل والتصاوير وزخارف الأخيلة . ويشدّ هذه الاشياء في نفسه شوقٌ غامضٌ خفيٌ ، إلى الجمال ، والجمال فحسب ، دون أي رابطةٍ تربطه بالحق أو العدالة أو الخير الشامل ، وهذا من أعجب الأمزجة الكئيبة التي شهدها القرن العشرون !

ڤاليري يرى أن « السياسة وحرية الفكر يتمانعان ، لأن السياسة أصنام ! » ويرى أيضاً أن « كل سياسة تنزع إلى معاملة الرجال على أنهم اشياء ، لأنها تتصرف بهم وتستخدمهم وفق مباديء وقواعد مجرّدة غامضة ، بحيث يتاح لها تحويل هذه المباديء والقواعد إلى أعمال من جهة ، وتجهد في تطبيقها من جهةٍ ثانية ، على جمهرة عديدة مختلفة من الأفراد المجهولين » . ويرى اخيراً أن « ما من سياسةٍ إلا وهي تنطوي ضمناً على رأي خاصّ، وفهمٍ خاص للانسان وطبيعته »

أما نظراته في أوروبا ومصيرها فانها من الدقة والعمق والسخرية السوداء بمنزلةٍ عجيبة ، طريفة ، أليمةٍ في آنٍ واحد . فهو يحسب أن أوروبا « ستُحرمُ من النبيذ ، ومن أشياء أخرى تتبعه ... » وتبدو له أنها « ليست غير رأس جغرافيّ صغير تابع للقارّة الآسيوية » ولا يداخله ريب في أنها تتوق إلى ان تحكمها لجنة أمريكيّة ...

وتجد ، الى هذا التشاؤم في نظره الى اوربا ، يأساً من السلم وإمكان تحققه في إطار الحضارة الاوربية الحديثة . إسمعه يشرح يأسه :

« لن يكون ثمة سلم حقيقي إلا اذا كان الجميع مرتاحين

(١) Poetry . June 1953 P . 178

دار بيروت – للطباعة والنشر

بناية اللعازارية ، تلفون ٣٩ بيروت – لبنان

صدر حديثاً

هذه هي الفوضوية	تأليف هنري أرفون
مي في حياتها المضطربة	« جميل جبر
الوجودية فلسفة انسانية	« جان بول سارتر
مولد انسان « طبعة ثانية »	« مكسيم غوركي

تحت الطبع

كارل ماركس	تأليف : هـنري لوفابر
الوجودية ليست فلسفة انسانية	« جان كانابا

قصص مختارة من الادب الفارسي ترجمة : محمد سليم رشدان

ازمة الفكر العربي : تأليف الدكتور اسحاق موسى الحسيني

تطلب هذه الكتب من :

وكيل الدار في عموم افريقيا السيد محمد خوجه – تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيد محمود حلمي – بغداد

مطمئنين ! هذا يعني ان ليس ثمة سلم حقيقي ! » وفي مقام آخر : « السلم انتصار وهمي ، أخرس ، مستمر للقوى الممكنة ، على الشهوات المحتملة ! » . ويقول : « ربما كان السلم تلك الحالة التي تتمثل بها كراهية الناس بعضهم لبعض ، في اعمال انشائية ، عوضاً عن ان تتمثل في التدمير والتخريب اثناء الحرب ».

الواضح من هذه الافكار والآراء السياسية التي انتهى اليها ڤاليري ، انها لا تتخطى منطق الواقع الاوربي ، ولا تحاول ان تسبغ على الاحداث العامة لوناً من هوى خاص ، او عاطفة خاصة ، فمن أين هذا التشاؤم وكيف نفسره ؟

الحقيقة ان ڤاليري واحد من عديد المفكرين الاوربيين الذين شغلهم مصير الحضارة الغربية اكثر مما شغلهم اصلاح هذه الحضارة ، وتدارك النتائج التي تنجم عن عيوبها .

فهؤلاء المفكرون ـ شبنغلر ، اندره سواريس ، كايزرلنغ ، برغسون الخ ... ـ ادركوا الخطر ، لانهم كانوا يعيشونه ، ولكن عاطفتهم الاوربية ظلت مكانها ، ولم يتزحزحوا عنها قيد انملة ، فأنت لا تقرأ كلمة واحدة كتبها ڤاليري مثلاً في شجب الاستعمار الغربي ، ولا تلاحظ انه حاول مقاومة الشرور والمفاسد التي تنجم عنه في داخل اوربا ، في تفكيرها وسياستها ، وما ذاك إلا لأنه مفتون ، على غير وعي منه ، بما حققه الاوربيون من فتوحات ، في عالم الفن والعلم ، فهو إذ ينعى اوربا لنفسها نعياً منطقياً رياضياً ، لا يفكر ابداً ، ولا يخطر على باله شيء مما فعله اهل اوربا في فلسطين ، والعراق ، والهند ، وايران ، ومصر ، وسائر بلاد افريقيا الشمالية والجنوبية !

ذلك هو مصاب اوربا الحقيقي الذي لم يوفق احد من مفكريها الى التقاطه واظهاره عيانا إلا فيما شذّ او ندر ! والذين تشاءموا منهم ـ واقواهم المتشائمون ـ إنما كانوا يصدرون في افكارهم ، عن إحساس بالواقع ، دون استقراء لأسبابه الخارجة عن اوربا ، الداخلة في تكوين بلائها وعذابها .

اوربا جزء من العالم ، وهي أقل اجزائه عدداً ، وأضعفها إيماناً بالمبادىء الانسانية ، وأبعدها عن تحقيق ما تستطيع تحقيقه من خير وعدالة وانصاف ، ولكنها تصرّ على اعتبار نفسها فوق العالم ، وتسعى الى السيطرة ، متناقضة بذلك مع منطق الحضارة الانسانية ، أفتل التناقض وأقساه !

وهذا هو السبب في تشاؤم كل مفكر أوربي عظيم !

عبد اللطيف شراره

في غيبة الحلم

[الى كل من عانى الهزيمة بعد الكفاح ، ولكنه لم يستسلم لان الكفاح في روحه ودمه]

•

نحن لم نحمل من الليل سوى وهج النجوم
وسوى بارق طهر رفّ في العتم الأثيم
واختزنا من زهيد الزهو في عهد الهموم
خمرة تمسح عن أضلعنا ذكرى الجحيم

★

نحن ، والصحراء : ارض الكفر بالغيث الكريم
شربت دفق صبانا ، وسقت شوك الهشيم
دمنا المسفوح كم روّى من الرمل العقيم ،
ونضبنا ، ورآنا الفجر انصاب وجوم
وجفوناً حفيت ، اودى بها لفح السموم
ترمق الأفق وترجو مهبط الطلّ الرحيم
ترمق الأفق وترجو رجعة الحلم العظيم
صغُرتْ احلامنا في غيبة الحلم العظيم
وابتلينا بالظما الكافر ، والجوع اللئيم
فهززنا الشهوة الحرّى على صدرٍ رميم
ووردنا بركاً سوداء فاضت بالحميم
واعتصرنا ثمرات نضحت سمّ السموم

★

أمسنا ! خدنَ الظما الكافر والجوع اللئيم !
أمسنا المهدور في الصحراء ، في الرمل العقيم ! !
صبّ ما شئت من الحسرة ، من ذكرى الجحيم
في مدانا ، في مدى حاضرنا الغضّ النعيم
انت في عتمتك النكراء خيط من همـوم
يتلاشى في البحار الزرق ، في النور العميم
نحن لم نحمل من الليل سوى وهج النجوم

بيروت ـ الجامعة الاميركية

خليل حاوي